# جامعة الأزهر
# حولية كلية اللغة العربية
# بنين بجرجا

## من

# البلاغة النبوية في حديث
# " مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل
# غيث أصاب أرضا....."


## الدكتور

## دسوقى عبد المعز محمد محمد

الأستاذ المساعد فى قسم البلاغة والنقد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين فى قنا



العدد الخامس عشر ( الجزء الأول )

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

## مقدمة

## بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، خير من نطق فبلّغ وأبلغ ، عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد ..

فإن الحديث النبوي أبلغ نص بعد القرآن الكريم إجماعا ، مبدع لفظا وتركيبا ، وصورا وأخيلة، وله نسق معين ، وأسلوبه لايضاهيه أسلوب . ولما كان الوقوف على استكناه معانيه الدقيقة ورقائقه البديعة من الأمور الواجبة التى تنضر وجه من يضطلع بـــها ، ثم يشمر عن ساعد الجـــد ليبين ـــ على قدر ما أوتى من وسائل – عن مسالك الهدى والرحمة فيها ، لما كان هذا من الذود عن الدين والمحبة لنبيه – عليه السلام – أتت تلك الدراسة لتميط اللثام عن البيان النبوي فى قوله – صلى الله عليه وسلم – " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أصَابَ أرْضاً ..." الحديث [(١)] .

وهو يصف فى بلاغة عالية أنواع الناس إزاء تلقيهم دعوة الإسلام .

والحديث – كغيره من أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مفعم بالنكات والسمات البلاغية ، ينيره أدب النبوة التصويري من كل جانب .

---

(١) صحيح البخارى ( الجامع الصحيح المختصر ) للإمام البخاري – كتاب العلم – باب فضل من عَلِـــمَ وعَلّـــَمَ – الحديـــث رقم ( ٧٩ ) – تحقيق / مصطفى ديـــب البغـــا : ٤٢/١ – دار ابن كـــثير – اليمامـــة – بـــيروت – ط ثالثـــة – ١٤٠٣ هـــ – ١٩٨٧م .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى مقدمة ، وتمهيد ، ومبحث واحد يمثل التحليل البيانى للحديث الشريف ، ثم الخاتمة ، ومصادر البحث ، ثم فهرس الموضوعات .

هذا وقد كان للوسائل البلاغية أثرها البالغ فى تصوير النماذج البشرية فى البيان القرآني ....وكذلك البياني النبوي ؛ وذلك لقدرة تلك الوسائل على تربية جوانب الشخصية على نحو يولد فى النفس نفورا منها وبغضا فى سلوكها ، أو ميلا إليها ورغبة فى مشاركتها ، والسير على طريقها .(١)

لذا آثرت العكوف وبذل الجهد والطاقة فى فهم الحديث النبوي الشريف وتدبره واستكناه أسرار ه – بقدر ما أتيح لى من وسائل – معتمدا على المنهج التحليلى البياني .

وقد اعتمدت رواية الإمام البخاري فى باب فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ ، مع عدم إغفال الروايات الأخرى التى بها تتكامل الصور وتتناغى الأغراض والمقاصد فى الأسلوب البياني العالى .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكون لبنة جديدة فى صرح الدرس البلاغي التطبيقي القائم على تحليل النصوص وتذوقها .

والله ولي التوفيق

## تمهيد

(١) ينظر : دور البلاغة فى تأدية الأغراض الدينية د/ محمد إبراهيم عبد العزيز : ٥ – مطبعة السعادة – ط أولى – ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

**منزلة البيان النبوي فى الإسلام** :

يتلو البيان القرآني منزلة ذلكم البيان النبوي ؛ وذلك لعدة أمور منها :

١ – أن البيان النبوي هو معين الوحي الذى تجلت فيه فصاحة النبي – صلى الله عليه وسلم – وبلاغته التى فاقت كل فصاحة بشرية ، يقول – صلى الله عليه وسلم – " أنا أفصح العرب ..... " [(١)] ، وما أورده النبي – عليه السلام – فى حديثه هذا حقيقة مقررة أقر بها القاصى والدانى ، وليست فخرا أو مباهاة ، وقد جمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ، ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهي الذى مدده الوحي الذى لا يحيط بعلمه بشري [(٢)] .

٢ – أن بيان النبوة من مشكاة بيان الله – عز وجل – ، يقول صلى الله عليه وسلم : " ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه " ، وفى رواية : " ما يعدله " [(٣)] . وهى وإن كانت مثلية تبيين وتشريع ، كما قال تعالى {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }[(٤)] .

---

(١) تمام الحديث : " بيد أنّي من قريش ، واسترضعت في بني سعد بن بكر " . ينظر : الفائق في غريب الحديث للزمخشري – تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١ ، ١١ ، دار المعرفة ، لبنان ، ط ٢ ، د. ت .

(٢) ينظر: الشفا بتعريف المصطفى للقاضى عياض ١/ ٤٧ – ط مصطفى الحلبي .

(٣) سنن أبى داود : كتاب السنة – باب فى لزوم السنة –: ٢/ ٥٥٢.

(٤) سورة النحل من الآية : ٤٤.

فإنها من دونها فى الإعجاز البيانى ، إذ الإعجاز البياني قائم على التحدى ، وهو خصيصة من خصائص البيان القرآني ، غير أن بيان النبوة يعلو كل آفاق البيان البشري على الإطلاق ، فهو وحي فى مضمونه وهداه [١] .

فقوله – صلى الله عليه وسلم – " أوتيت الكتاب ومثله معه " يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرح ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله ، كالظاهر المتلو من القرآن .

وبهذا تتضح منزلة السنة من القرآن ، ويتجلى وجه المماثلة بينهما فى الحديث الشريف [٢] .

١ – وقد كان منطقه – صلى الله عليه وسلم – على أتم ما يتفق فى طبيعة اللغة ويتهيأ لها فى إحكام الضبط وإتقان الأداء : لفظ مشبع ، ولسان دليل ، وتجويد فخم ، ومنطق عذب ، وفصاحة متأدبة ، ونظم متساوق ، وطبع يجمع ذلك كله [٣] .

٢ – ومن كمال تلك النفس العظيمة وغلبة فكره – صلى الله عليه

---

(١) ينظر : النبوة منهجا وحركة ، د / محمود توفيق سعد : ٥ – مطبعة الأمانة – ط أولى – ١٤٣١هـ – ١٩٩٢م.

(٢) معالم السنن للإمام الخطابي – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى : ٢٧٦/٤ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ، وينظر : البلاغة النبوية فى حديث :" مثل البخيل والمنفق ..." د/ على عبد الموجود نور الدين – حولية كلية اللغة العربية بجرجا : العدد الثالث عشر : ٧٩٢/١ –١٤٣٠هـ –٢٠٠٩م .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي :٢٩٦ – المكتبة التوفيقية – القاهرة .

وسلم – على لسانه قَلَّ كلامه وخرج قصدا فى ألفاظه ، محيطا بمعانيه ، تحسب النفس قد اجتمعت فى الجملة القصيرة ، والكلمات المعدودة بكل معانيها .

٣ – المعانى فى بيان النبوة ربانية المصدر ، بشرية المنطق ، تمثل قمة البلاغة الإنسانية ، فالناظر فى معانيه – صلى الله عليه وسلم – يدرك أنها المعانى التى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد ، وبراعة القصد والمجيء فى كل ذلك من وراء الغاية [١] .

٤ – والأحاديث النبوية ليست أفكارا أو خواطر يستخرجها المتكلم من ذات نفسه ، وإنما هى فى كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحي يوحى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } [٢] ، وفى كلام الصحابة – رضوان الله عليهم – أخبار تحكى ، والوحى فى كلامه – صلى الله عليه وسلم – لا يمنع أن يكون لكلامه وسم يعرف به وخصوصية تدل عليه ، لا من جهة طابع النبوة الذى هو ظاهر جدا فى كلامه – صلى الله عليه وسلم – ، وإنما من جهة ما يتميز به الكلام وما يكون له من سمت وطريق ومذهب ؛ لأن الوحى فى كلامه – عليه السلام – معنى يلقى فى روعه كما تلقى المعانى فى الصدور ، ثم يحدث عنه – صلى الله عليه وسلم – ببيانه وطريقه ومذهبه ، فمسألة

---

(١) السابق : : ٢٨٢، ٣٠٠.

(٢) سورة النجم : ٣، ٤ .

الوحى لا تمنع فى البحث عن المذهب والطريق .

والمعلوم أن سمة البيان النبوي الوضوح وجلاء العبارة لفظا وتركيبا ومضمونا ، وهو ينطلق فى ذلك من كونه تبيينا لما فى كتاب الله – تعالى – من الهدى والرحمة ، يقول الإمام الخطابي رحمه الله : " إن الله – عز وجل – لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه،ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها ، ومن الألسن أفصحها وأبينها ، ليباشر فى لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف [(١)] .

ووضوح البيان النبوي يجعله غنيا عن الشرح والتوضيح ، ويجعل مهمة البحث فيه تقوم على : تحليل بنائه واستكشاف الصنعة البيانية ، والمكونات اللغوية التى قام النص الشريف عليها ، وشكلت صورته وحددت هيأته ووضعت ملامحه ، وجعلت منه وله هيأة يختلف بها عن غيره من النصوص ، وترى البون بينه وبينها كالبون بين رجل ورجل ، وفرس وفرس ، كما كان يقول الشيخ عبد القاهر – رحمه الله تعالى – وكان يشير إلى أن صور المعانى وهيآتها تبين بخصوصيات تكون فى هذه ولا تكون فى تلك ، وبها يفترق كلام من كلام كما تفرق خصوصية النقش خاتما من خاتم ، وسوارا من سوار [(٢)] .

٥ – يمتاز نسق البلاغة النبوية فى جملته بأنه ليس من شىء أنت واجده فى

---

(١) ينظر : غريب الحديث للخطابي – تحقيق / عبد الكريم إبراهيم الغرباوي : ١/٧٠،٧١– ط مركز البحث العلمي وإحياء التراث – كلية الشريعة –جامعة أم القرى – السعودية .، وينظر البلاغة النبوية فى حديث " مثل البخيل .." : ٧٩٣.

(٢) ينظر : كتاب دلائل الإعجاز : تحقيق / محمود أحمد شاكر : ٥٠٧،٥٠٨ – مطبعة المدنى – ط ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ، د/ محمد أبو موسى : ٣٤،٣٥ – مكتبة وهبة – ط أولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

كلام الفصحاء – وهو معدود من ضروب الفصاحة ومتعلقاتها – إلا وجدته فى هذا النسق على مقدار من الاعتبار يفرده بالميزة ، ويخصه بالفضيلة ؛ لأن كلامه – صلى الله عليه وسلم – فى باب التمكين لا يعدله شيء من كلام الفصحاء ...إذ هو مبني على :

– الخلوص فى اللغة وفى الأسلوب .

– القصد والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى فى ألفاظه ، ومن طبيعة الألفاظ فى معانيها ، ومن طبيعة النفس فى حظها من الكلام وجهتيه اللفظية والمعنوية .

– الاستيفاء لمعانى الكلام ومقاصده ، بحيث يخرج الكلام مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها نقصان ، ولا إحالة ولا اضطراب ، فتتجلى الألفاظ فى تركيب تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه ، وطبيعته فى النفس [(١)] .

**روايات الحديث :**

هذا الحديث النبوي الشريف متفق على صحته حيث أخرجه كل من : البخاري [(٢)] ، ومسلم فى الصحيحين [(٣)] ، وأحمد فى مسنده [(٤)] ،

---

(١) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٣٨–٣٤٠.

(٢) صحيح البخاري ( الجامع الصحيح المختصر ) ينظر مقدمة البحث ص : ١.

(٣) صحيح مسلم ( أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، كتاب الفضائل – باب بيان مثل ما بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – من الهدى والعلم – حديث رقم ( ٢٢٨٢ ) – تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى :١٧٨٧/٤ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – د . ت .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث رقم ( ١٩٥٨٨ ) تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وآخرين :

والنسائي فى السنن [(١)]، وابن حبان فى صحيحه [(٢)]، جميعهم عن أبى موسى الأشعري – رضى الله عنه – كما ذكره الإمام النووي فى رياض الصالحين[(٣)]

والألباني فى صحيح الترغيب والترهيب [(٤)]، والرامهرمزي فى أمثال الحديث [(٥)].

---

٤/ ٣٩٩ – مؤسسة قرطبة – القاهرة – د.ت .

(١) سنن النسائي الكبرى ( أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى ) – كتاب العلم – باب " مثل من فقه فى دين الله " حديث رقم ( ٥٨٤٣) تحقيق / د / عبد الغفار سليمان البنداري ، وسيد كسروي حسن : ٤٢٧/٣، دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ( محمد بن حبان أبو حاتم البستي ) – حديث رقم ( ٤ ) – تحقيق / شعيب الأرناؤوط :١/ ١٧٧– مؤسسة الرسالة – بيروت – ط – ثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

(٣) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام الحافظ الفقيه أبى زكريا محيى الدين يحيى النووي ، باب فضل العلم – تأليف د / = = مصطفى سعد الخن ، ود/ مصطفى البغا وآخرين :١٣٧٩/٣– مؤسسة الرسالة – ط ١٤ – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

(٤) صحيح الترغيب والترهيب للألباني – باب الترغيب فى العلم وطلبه وتعلمه : ١٨/١ – مكتبة المعارف – الرياض – ط خامسة .

(٥) المروية عن النبي – صلى الله عليه وسلم – لأبى الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي – الحديث فى أول الكتاب رقم ( ١٢ ) – تحقيق / أحمد عبد الفتاح تمام – مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – ط أولى – ١٤٠٩هـ .

**طرق الرواية :**

ورد هذا الحديث بطريق واحد هو طريق أبى أسامة [١] عن بُريد بن عبد الله بن أبى بَرْدَة [٢] عن أبى موسى الأشعري [٣]، حيث قال الإمام البخاري فى صحيحه [٤] : حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبى بردة عن أبى موسى عن النبي –

---

(١) الحافظ أبو أسامة : حماد بن أسامة بن زيد الحافظ أبو أسامة الكوفي مولى بنى هاشم ، روى عن الأعمش وإسماعيل بن أبى خالد ، وأسامة بن زيد الليثي ، والأجلح الكندي ، وإدريس الأودي ، وبريد بن عبد الله بن أبى بردة ، وهشام بن عروة ، وخلق كثير ، وروى عنه عبد الرحمن بن مهدي مع تقدمه ونبله ، وأحمد وإسحاق وابن معين ....قال أحمد : أبو أسامة ثقة ، كان أعلم الناس بأمور الناس ، وأخبار الكوفة ، وما كان أرواه عن هشام بن عروة ، وقال أيضا : كان ثبتا لا يكاد يخطئ ، وقال أبو أسامة : كتبت بأصبعي هاتين مائة ألف حديث ، وروى له جماعة ، وتوفي سنة إحدى ومائتين ، وهو ابن ثمانين سنة . الوافى بالوفيات للصفدي : ٤/ ٣١٧.

(٢) بريد بن عبد الله بن أبى بردة الأشعري : ابن أبى موسى عبد الله بن قيس بن حضار ، المحدث ، أبو بردة الأشعري ، الكوفي ، حدَّث عن جده ، وعن =الحسن وعطاء بن أبى رباح ، وعنه : السفيانان ، وابن المبارك ، وأبو معاوية ، وحفص بن غياث ، وأبو نعيم ، وأبو أسامة ، وعدد كثير ، وهو صدوق ، احتجاجه فى (الصحيحين) ..... ولم يرو عنه أحد أكثر من أبى أسامة ، وأحاديثه عنه مستقيمة ، وأرجو ألا يكون به بأس ...توفي سنة نيف وأربعين ومائة ، وله عدة أحاديث فى الصحاح . سير أعلام النبلاء للذهبي – تحقيق / مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ / شعيب الأرنؤوط – ٦/ ٢٥١– مؤسسة الرسالة – ط ثالثة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٣) أبو موسى الأشعري : عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري حليف آل عتبة بن عبد شمس ، كان إسلامه بمكة ، وهاجر إلى أرض الحبشة حتى قدم زمن خيبر ، وقيل : مات أبو موسى سنة خمسين ودفن بالتوتة على ميلين من الكوفة . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبى بكر الهيثمي : ٥٩٨/٩– دار الفكر – بيروت – ١٤١٢هـ .

(٤) فى صحيح مسلم " إن مثل " بزيادة " إن" ، وكذلك فى " الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، وفى رياض الصالحين وفى دلائل النبوة .

صلى الله عليه وسلم – قال : " مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيّـَةٌ[١] قَبِلَتِ الْمَـاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ [٢] وَالْعُشْبَ [٣] الْكَثِيـرَ، وَكَانَتْ مِنْـهَا أَجَادِبُ [٤] أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا [٥]، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِىَ قِيعَانٌ [٦] لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِى دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ،وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ " [٧] .

---

(١) فى صحيح مسلم " طائفة " بدلا من " نقية " وكذلك فى معظم الروايات الأخرى ، وهنـاك رواية أخرى فهناك " بقية " بدلا من " نقية " .

(٢) الكلأ : العشب رطبه ويابسه . لسان العرب لابن منظور ؛ مادة " كلأ " – دار صـادر – بيروت – ط أولى – د.ت .

(٣) العشب : الكلأ الرطب . لسان العرب ، مادة : عشب .

(٤) الأجادب : صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعا ، لسان العرب ، مادة " جدب " .

(٥) فى جميع الروايات " رعوا " بينما فى البخاري " زرعوا " وهو الأولى بأن يكون أصلا .

(٦) قيعان : مااستوى من الأرض وصلب ، ولم يكن فيه نبات ، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي – تحقيق / مجموعة من المحققين : مادة " قوع " – دار الهداية – د. ت .

(٧) الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، كتاب بدء الـوحى ، بـاب فَضْـلِ مَـنْ عَلِـمَ وَعَلَّـمَ :١/٣٠– دار الشـعب – القـاهرة – ط الأولى ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

**بناء المعانى فى الحديث الشريف :**

من نافلة القول الإشارة – فى هذا المقام – أن كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو"الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصير ....ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم .[(١)]

وما ذلك كله إلا لأنه " لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، وييسر بالتوفيق .[(٢)]

ولا عجب فى ذلك فهو القائل " أدبنى ربى فأحسن تأديبى "[(٣)]

وهذا الحديث الشريف الذى بين أيدينا من جوامع كلمه – صلى الله عليه وسلم – قد بنى على المثل وصيغ بأسلوبه القائم على التمثيل والتصوير ، فاستهله – عليه السلام – بكلمة " مثل " ، وهذا يعنى أن

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق وشرح / عبد السلام هارون :١٧/٢،١٨– مطبعة المدنى – ط السابعة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م بتصرف قليل .

(٢) السابق : ١٧/٢.

(٣) الحديث فى الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع للعسقلاني – تحقيق / أبى عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي : ٩٧– دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى – ١٩٧٧م.

إفهام المقصود من الكلام لا يتحقق بمجرد أن تسمع الآذان الألفاظ كما فى الأحاديث التى تخبر بالمراد خبرا مباشرا ، بل يتحقق بما تفهمه اللغة والألفاظ الظاهرة ، وبما تراه العيون ، وفرق بين المعنى الذى تأخذه من لفظ تسمعه الآذان ، والمعنى الذى تأخذه من صورة تراها العيون ، اللفظ هنا يحيلك إلى معنى ، ثم يحيلك هذا المعنى إلى معنى فتأخذ مقصودك من معنى المعنى ، وليس من المعنى .(١)

وغنى عن البيان أن الوقوف على فقه النصوص واستكناه أسرارها يتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التى هى المفردات ، وجمله وارتباط بعضها ببعض ، ثم دراسة النص برمته، وتبين المعانى التى احتواها، وليس هذا فحسب ، بل لابد من دراسة مابين اللفظ والمعنى من تآخ وتناسب ، ودراسة ما اختير من المعانى ، لمعرفة مدى تأثيرها فى الفكر ، وإثارتها للوجدان ، فإن النفس الإنسانية تنقاد بهما ، وتخضع لهما .(٢)

وقبل الشروع فى تحليل هذا الحديث النبوي الشريف – بقدر ما أتيح لدى من وسائل تحليله – تجدر الإشارة إلى أننى لم أنتق ذلك الحديث انتقاء ، وإنما أخذت ما وقعت يدى عليه من غير اختيار ؛ لأننى معتقد أن كلامه – عليه السلام – محكم كله ، وأن طبع بيانه الشريف يجرى فى كل ما دار به لسانه ، وصاغه خاطره .(٣)

الحديث الشريف بنى على جملة واحدة هى جملة المثل

---

(١) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخاري: ١٦٩، ١٧٠ – مكتبة وهبة – ط –أولى – ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م .

(٢) ينظر : من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي :٥ – نهضة مصر ٢٠٠٥م .

(٣) قراءة فى الأدب القديم ، د/ محمد أبو موسى : ٢٩٧ – ط أولى ١٩٧٨م – دار الفكر العربي ، بتصرف .

ومتعلقاتـــها " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ..." وهى مبتدأ وخبر .

وأول مايلحظ فى تكوين هذه الجملة التعبير بالموصول " ما " فى قوله " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ " والذى أشار إلى زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام ، وهو إبراز قيمة ومكانة رسالة الإسلام ، فهو ليس شيئا هينا لايؤبه به ، ولا يلتفت إيه .

وفيما سبق من معان تهيئة للقلوب وشحذ للعقول لتلقى ما يورده عليها نبى الرحمة .

وفى بعض روايات للحديث الشريف ورد مصدرا بـــ " إن " إذ قال عليه السلام " إن مثل مابعثنى الله به ..." [(١)] ولعل تأكيد الخبر هنا جاء لأهمية الخبر نفسه .

وقوله " مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْـــمِ " المراد بالعلم هنا الظاهر والخفي والهدى وسيلة إلى العـــلم فلذا قدمه [(٢)] ، ويمكن جعل التقديم هنا تقديم شـــرف وفضل ، كما فى تقديـــم السجود على الركوع فى قولـــه تعـــالى :" .. وَاسْجُدِي وَارْكَـــعِي مَعَ الـــرَّاكِـــعِينَ "[(٣)] ؛ وذلك لقـــوله – صلى الله عليه وسلم – " أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ إلى الله وَهُوَ

---

(١) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، محمد بن فتوح الحميدي ، باب المتفق عليـــه مـــن مسند أبى موسى الأشعري – رضى الله عنه – :١٨٠، حديث رقم ( ٤٥٣) ، تحقيق د / على حسين البواب – دار ابن حزم – لبنان – ط ثانية ١٤٢٣هـــ ٢٠٠٢م.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان محمد القارى :١٠/٢– دار الكتاب الإسلامي – القاهرة .

(٣) سورة آل عمران من الآية : ٤٣.

سَاجِدٌ "[١] [٢] .

هذا ويحتمل التقديم هنا وجها آخر لعله يكمن فى أن الهدى سياج للعالِم من الضلال ، فى حين أن العلم – وحده – قد لا يعصم الإنسان من الضلال ، يقرر ذلك أن هناك من يقع فى الضلال على علمه ، حيث قال سبحانه فيمن يتخذ من هواه إلها " أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ..." [٣] فالعلم وحده لا يهدى فمن ثم أخر عن الهدى .

و"أل " فى " الهدى والعلم " للعهد ، فقد دلت على هدى وعلم معينين ، وهذا التعريف يفيد توكيد اللفظ وتقريره وإيضاحه للسامع ؛ لأنه لما جعل معهودا دل على أنه واضح وظاهر .

وعطف العلم على الهدى لما بينهما من تلازم وثيق فى الغاية والهدف ، فالعلم يبدد ظلام الجهل ، كما أن الهدى يبدد ظلمات الكفر والحيرة والضلال .

وبداية الحديث تعد براعة استهلال منه – صلى الله عليه وسلم – وقد لف تلك البراعة فى ثياب الإجمال بعد التفصيل ، فقوله " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا " إجمال ، وقوله بعد ذلك " فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ...الحديث " تفصيل .

والتفصيل بعد الإجمال لون من ألوان الإطناب ، يعد طريقة من طرائق تمكين المعانى وتقريرها فى النفوس ، كما أن هذا اللون فى هذا

---

(١) الحديث فى فتح البارى شرح صحيح البخاري ، باب الدعاء فى الصلاة ، ١٣٢/١١.

(٢) ينظر البرهان فى إعجاز القرآن للزملكاني – تحقيق د/ خديجة الحديثي ، ود/ أحمد مطلوب : ٢٩٨ – مطبعة العانى – بغداد – ط أولى ١٣٩٩ هـ ١٩٧٤م .

(٣) سورة الجاثية من الآية :٢٣.

الموضع يتلاقى ويتواءم مع " إن " فى مطلع الحديث النبوي الشريف [(١)]، فبينهما ارتباط وثيق .

ويتناغى هنا الإطناب –كذلك – مع غرض المتكلم – صلى الله عليه وسلم – فقد أجمل ثم فضل ؛ لأن " المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها بعد أتم " [(٢)] .

وقوله صلى الله عليه وسلم " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ ..... وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ ... وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ..." .

قوله هذا يمثل ثلاثة أنماذج من الناس ، قصد الحديث إلى تصويرهم ، وتلمح تشبيه النبي – صلى الله عليه وسلم – السامعين له بالأرض المختلفة التى يترل بها الغيث ، فمنهم العالم العامل المعلم ، فهو بمترلة الأرض الطيبة النقية التى شربت الماء فانتفعت فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها ، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه ، غير أنه لم يعمل بنوافله ، أو لم يتفقه فيما جمع ، لكنه أداه لغيره ، فهو بمترلة الأرض التى يستقر فيها الماء فينتفع الناس به ، وهو المشار إليه بقوله " نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي ، فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَبَلَّغَهَا مَنْ لم يَسْمَعْها فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لا فِقْهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ "[(٣)]، ومنهم من يسمع

---

(١) كما فى رواية صحيح مسلم .

(٢) الإيضاح فى علوم البلاغة المعانى والبيان والبديع ، الخطيب القزويني :١٨٦ – دار إحياء العلوم – بيروت – ط رابعة – ١٩٩٨م .

(٣) المعجم الكبير للطبراني ، باب " جعفر بن أبي طالب الطيار فى الجنة رضى الله عنه – رقم (

فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التى لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها .[١]

وإذا كان الحديث قد بنى على جملة المثل ، فقد كان للتقسيم فيه حظ وافر ، فتأمل كيف جمع النبي – صلى الله عليه وسلم – حينما شبه ما أرسل به من الهدى والعلم بالغيث الكثير حين يصيب الأرض ، ثم شرع يقسم فى أنواع الناس الذين يتلقون هذا الغيث ، وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى التقسيم باعتباره مما يدخل فى دقة النظم وغموض المسلك .[٢]

وجملة القول فالحديث الشريف مبني على جملة واحدة هى المثل ، وقد تمازجت عباراته ، وتناسلت جمله وتراكيبه ، وتواءمت كلماته وحروفه ، ولعل ذلك هو النمط العالى والباب الأعظم كما سماه شيخ البلاغيين – رحمه الله – ونعته بأنه يدق فيه الصنع ويحسن فيه النظم ، ولا ترى سلطانا يعظم فى شيء كعظمه فيه .[٣]

وتناغى الجمل وتواؤم تراكيبها وتشابكها فى صور التشبيه والتمثيل ليس نمطا عاليا وبابا عظيما فحسب ، وإنما هو " مما ندر منه ولطف مأخذه ، ودق نظر واضعه "[٤]

---

١٥٤٤) – تحقيق / حمدى عبد المجيد السلفي : ١٢٧/٢– مكتبة العلوم والحكم – الموصل – ط ثانية – ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .

(١) ينظر أمثال الحديث :١٤.

(٢) كتاب دلائل الإعجاز : ٩٤،٩٥.

(٣) السابق : ٩٣–٩٥ .

(٤) السابق : ٩٥.

وإنما كان لصور التشبيه والتمثيل هذه الميزة الإضافية ؛ " لأن تركيب التشبيه فيه مراعاة الأحوال والخفايا الشيء الكثير ، وتذكر ما فى تحليل صور التشبيه من إشارات ورموز [(١)]، واستدراكات ، وكيف تخصب الصور ، وتغنى بالمحترزات والإضافات ، ومراعاة دقائق المعاني النحوية فى تكوين الصورة ، وكيفية صياغتها .[(٢)]

بلاغة التمثيل فى قوله – صلى الله عليه وسلم – " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ..."

المثل : الشبه ، يقال : مِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد [(٣)]، والمثل يقال على وجهين :

أحدهما : بمعنى المِثْل نحو شِبْه وشَبَه ،قال بعضهم : وقد يعبر بهما عن وصف الشيء ، نحو قوله تعالى " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .."[(٤)]

والآخر :عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى ، أى معنى كان .

---

(١) فرق أهل العلم بين الإشارة والإيماء وبين الرمز ؛ وذلك عند حديثهم عن تفاوت الكناية إلى تعريض ، وتلويح ، ورمز ، وإشارة ، فذكروا : أن أصل الإشارة أن تكون حسية وهي ظاهرة ، أي لاخفاء فيها ، ومثلها الإيماء ، وأما الرمز: فهو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية ، كالإشارة بالشفة أو الحاجب ، فإنه إنما يشار بهما غالبا عند قصد الإخفاء . ( ينظر : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي :٤/٢٦٩،٢٧٠ ضمن شروح التلخيص – طبعة دار السرور ) والإيضاح مع البغية : ٥٥١ – مكتبة الآداب بالقاهرة – ط أولى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م .

(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، د/ محمد أبو موسى : ٣١٦ – مكتبة وهبة ، وينظر : البلاغة النبوية فى حديث : " مثل البخيل والمنفق .." : ٨٠١،٨٠٢.

(٣) لسان العرب : " مثل " .

(٤) سورة الرعد من الآية : ٣٥.

وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابـــهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط ، والشَّبه: يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط، والمساوى : يقال فيما يشارك فى الكمية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه فى القدر والمساحة فقط ، والمثل عام فى جميع ذلك ، ولهذا لما أراد الله – تعالى – نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .."[١] [٢]

والمثل الشيء الذى يضرب لشيء مثلا فيجعله مثله [٣]، والمثل : عبارة عن قول فى شيء يشبه قولاً فى شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره [٤].

والمثل عبارة تقال لتشبيه حال بنظريتها ، أو قصة مَثَل : فى التشبيه العجيب " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا .."[٥] [٦]

وضرب الأمثال سمة بارزة فى البيان القرآني ، قال تعالى " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "[٧] وفى آية أخرى " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ "[٨] .

يقول صاحب الكشاف : أى لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها

---

(١) سورة الشورى من الآية :١١.

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني : ٤٦٣ – ط دار المعرفة – بيروت – ١٩٧٠م.

(٣) لسان العرب : " مثل " .

(٤) المفردات فى غريب القرآن :٤٦٣.

(٥) سورة البقرة من الآية : ١٧.

(٦) معجم ألفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ١٠٣٢/٢-١-٣٥- مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م .

(٧) سورة الحشر من الآية :٢١.

(٨) سورة العنكبوت : ٤٣.

إلا هم ، كما صـــور هذا التشبيه " مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ..."[١] الفرق بين حال المشرك وحال الموحد [٢].

واقتداء بالقرآن الكريم نجد النبي – صلى الله عليه وسلم – قد أكثر من الأمثال زيادة فى كشف المعانى وتقريبها للأفهام عن طريق تشبيه شيئ فى حكمه وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر [٣] .

فإبراز المعانى فى صورة التمثيل أوقع فى القلب وأقمع للخصم الألد ؛ لأنه يريك المتخيل متحققا محسوسا ، ولشأنه العجيب فى إبراز الحقائق المستورة ، ووضع الستور عن وجه الحقيقات كثر فى القرآن الكريم وفى بيان النبي العظيم صلى الله عليه وسلم [٤].

وغني عن البيان أن المتخيل فى الأمثال النبوية هو ما يجرى فى خيال المتلقين والمستمعين من المعانى المتخيلة والمستورة ، أما النبي – صلى الله عليه وسلم – فإنه لم يكن يترع فى تشبيهاته من التخييل والتهويم الذى قد يسبح فيه الأدباء المبدعون ، وإنما هو يترع من الحقيقة الشاخصة أمام البصائر الثاقبة حجب الكون المحيط ، والتى تزيدها الغفلة كثافة والاشتغال بزخرف الحياة الدنيا تراكبا وتراكما .

الرسول – صلى الله عليه وسلم – يترع فى تشبيهاته

---

(١) سورة العنكبوت من الآية :٤١.

(٢) تفسير الزمخشري : ٣/٢٠٦،٢٠٧– طبعة دار الفكر – د . ت .

(٣) الأمثال فى القرآن الكريم لابن القيم :٩ – مكتبة الصحابة – ط أولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

(٤) ينظر : التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى : ٢/ ٧١٦ ، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض – ط ثالثة – ١٤٠٨ هـ _ ١٩٨٨م .

ويستخرجها من كنز الحقيقة المطمورة ، فإذا به يجمع لك بين حقائق أشياء لا تقوم فى عقل وإن عظم أن بينها تلاقيا وتعانقا ، فيكون ذلك أليط بالقلب وأعلق به .[١] وأدعى إلى صبابة النفوس وشغفها به لظهوره من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وجمعه بين المتباعدين .

وفى هذا السياق – أعنى سياق الجمع بين المتباعدين – أورد الإمام عبد القاهر قوله " ومَبْنَى الطباع وموضوعُ الجِبِلَّة، على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يُعْهَد ظهوره منه، وخرج من موضعٍ ليس بمعدِنٍ له، كانت صَبَابةُ النفوسِ به أكثر، وكان بالشَّغَف منها أجدر، فسواءٌ في إثارة التعجُّب، وإخراجك إلى روعة المستغربِ، وُجودُك الشيءَ من مكان ليس من أمكنته، ووجودُ شيءٍ لم يُوجَد ولم يُعرَف من أصله في ذاته وصفته " [٢]

والتمثيل فى قول النبي – صلى الله عليه وسلم – " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ "

هذا التمثيل يؤكد هذا المعنى ، ويتخذ من ذلك التشبيه القائم

---

(١) ينظر أثر التشبيه فى تصوير المعنى قراءة فى صحيح مسلم – د / عبد البارى طه سعيد : ١١،١٢– ط أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.وينظر : البلاغة النبوية فى حديث " مثل البخيل والمنفق ..." :٨٠٤،٨٠٥.

(٢) كتاب أسرار البلاغة ، تحقيق / محمود أحمد شاكر : ١٣١ – مطبعة المدني – د. ت .

على الجمع بين الشيئين المتباعدين ، ليقرب بينهما فيكون بينهما التواؤم والتناغى والاعتلاق .

والمعنى الذى أمه النبي – صلى الله عليه وسلم – هو إبراز اختلاف الناس فى تلقيهم الهدى والعلم ، فمنهم من انتفع ونفع غيره ، ومنهم من لم ينتفع ولكنه نفع غيره ، ومنهم – وهو الصنف الثالث – من لم ينتفع ولم ينفع غيره ، ولكن " هذا الأسلوب التقريري فى حاجة إلى صورة بيانية جامعة تزيده إيضاحا وتأثيرا كى يتأصل فى النفوس تأصلا تمليه الروعة البيانية . فلا بد من هيئة جامعة تندرج فيها هذه الأنماط المختلفة "[(١)] فكان ذلك البيان النبوي الرائع فى بناء هذه الصورة التى أجلت المعانى المحتجبة فى الأستار ، بل زادتها جلاء وسطوعا .

إذا قد جعل – عليه السلام – من خلال تلك الصورة التمثيلية الناس بالنسبة إلى قبولهم الهدى والعلم من عدمه ثلاثة أنواع :

فحال النوع الأول من الناس – والذى عبر عنه بقوله " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ.....فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فَعَلِمَ وعَلَّمَ ..." – حال الذى يقبل على نور الله وطاعته وعلمه بكليته ويتقبله فينتفع به وينفع غيره بحال تلك الأرض الطيبة الخصبة النقية الطاهرة التى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج بمجرد ملامسة الغيث لها .

فتلك الأرض أبانت عن طيب معدنها ، وخصوبة أرضها ، وأن الخير مركوز فى طباعها ، ولعل تلك الطائفة هم " ورثة الرسل وخلفاء

(١) البيان النبوي ، د/ محمد رجب البيومي :٢٣٢ – دار الوفاء – ط أولى – ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله – عز و جل– ورسوله– صلى الله عليه و سلم– فهؤلاء أتباع الرسل ــ صلوات الله عليهم وسلامه ــ حقا ، وهم بمنزلة تلك الأرض الطيبة التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فزكت في نفسها وزكا الناس بها وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة " (١)

فالمشبه حال الهدى والعلم الذى بعث به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقيمته ومكانته وأثره الذى يحيى الله به القلوب بعد موتها – والذى عبر عنه النبي – عليه السلام – بـــ " الغيث " ؛ وذلك من قبيل المعانى المعقولة الخبيئة المتوارية وراء حجب الأستار ، ومن ثم تحتاج إلى تصوير وتجسيد دقيق فى صورة مثل تكاد العيون تراه رأى العين ليميط تلك الألثمة ويزيح هذه الأستار والحجب ويقربها للأفهام ؛ ومن أجل ذلك رأينا النبي – صلى الله عليه وسلم – مبدعا – كعادته – فى تصويرها وتجسيدها – وهو المشبه به – فى صورة تلك الأرض الطيبة التى أفعمت زروعا وثمارا وسائر الخيرات والطيبات بتقبلها للغيث الذى هو الهدى والعلم ، وذلك من قبيل المحسوسات التى تبصرها العيون ، وبذا يكون هذا التمثيل المعقول محسوسا ، والتمثيل بالمشاهدة يزيد النفس أنسا ويملؤها سرورا وطربا " (٢)

ووجه الشبه : هو تعدد تلك الخيرات والمنافع لهم حينما تقبلت أفئدتهم نور الإيمان فانشرحت صدورهم فعم وطم خيرهم فانتفعوا ونفعوا

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم – تحقيق / محمد عبد الرحمن عوض : ٧٢ – دار الكتاب العربي – بيروت – ط أولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(٢) أسرار البلاغة :١٢٧ .

غيرهم .

ومن الوضوح بمكان أن تبيان حال هؤلاء النوع من الناس والترغيب الحثيث فى الاقتداء بهم والسير على منوالهم هو غرض التشبيه هنا .

وعودة إلى وجه الشبه فى هذا النوع من الناس تجده وجها عقليا ، وإن كان الطرفان مختلفين من حيث الحسية والعقلية ؛ لأن التشبيه بالوجه العقلي أعم من التشبيه بالوجه الحسي ، والوجه الحسي يكون طرفاه حسيين ؛ لامتناع أن يدرك بالحس من غير الحسي شيء ، والعقلي طرفاه إما عقليان ، أو حسيان ، أو مختلفان ؛ لجواز أن يدرك بالعقل من الحسي شيء " [١]

أما حال النوع الثانى من الناس – والذى عبر عنه – صلى الله عليه وسلم – بقوله " .... وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا..." فهو حال من قبل الهداية وروى وحفظ العلم ، ولكنه توقف عند حدود الحفظ للعلم فلم يعمل بما علم بحال تلك الأرض الجدباء التى تمسك الماء من أن يغور فى الأرض فيضيع ، حتى يأتى الناس فينتفعوا بهذا الماء ويزرعوا ويحصدوا ويأكلوا .

والحق ما أبدعه من تصوير ذلك الذى يبرز من يأتيه العلم والهدى فيحفظه فى صدره فيفيد غيره ولا يفيد هو منه ، ولابن القيم – رحمه الله – كلام قيم فى ذلك الصدد حيث يقول عن هذه الفئة من الناس " إنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس ، وتلقوها منهم فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها

(١) ينظر : الإيضاح مع البغية : ٣٩٩.

وبذروها فى أرض قابلة للزرع والنبات كل بحسبه "قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ" [(١)] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي – صلى الله عليه وسلم – " نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي ، فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَبَلَّغَهَا مَنْ لم يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لا فِقْهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ "[(٢)] [(٣)] .

ووجه الشبه : النفع للغير وهو هنا– أيضا – عقلي .

والغرض من هذا التشبيه كالسابق وهو بيان حالهم ، يضاف إليه الترغيب فى بث ونشر العلم .

أما حال النوع الثالث من الناس – والمعبر عنه بقوله عليه السلام "... وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً " فهو حال المعرض الصاد عن هدى الله الصم البكم العمي الذين لا يعقلون .

فالعقول خاوية والقلوب ميتة يشبههم – عليه السلام – بحال الأرض التى استوت وصلبت فمر عليها الماء مرورا سريعا فلم يترك فيها أثرا ولم يبق عليها لينتفع بها الناس ، فهم مثل تلك الأرض التى لا تنبت كلأً ولا تمسك ماء لينتفع بها الناس ، وعدم الجدوى والنفع يطل برأسه ليبرز لنا الغرض من هذا التشبيه .

وهذه الفئة الأخيرة هى التى يستعاذ منها ، ولذلك قال ابن القيم عنهم : " هم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ، ولم يرفعوا به رأسا ، أى فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية ....ثم

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٦٠

(٢) سبق تخريجه ، انظر ص : ١٨ من البحث .

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب : ٧٢.

أجمل – رحمه الله – الفئات كلها بقوله : فالطبقة الأولى : أهل رواية ودراية ، والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراية بل حظهم من الرواية أوفر ، والطبقة الثالثة : الأشقياء لا رواية ولا دراية ولا رعاية " إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً"[١] [٢]

وهذه المعانى العقلية حينما تستخرج من رحم هذا التشبيه التمثيلي فإنها تحتاج إلى وعي ودقة وتمرس وروية ، ولذا يقرر شيخ البلاغيين أنه " من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نَيله أحلَى، وبالمزِيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضَنَّ وأَشْغَف "[٣] .

والمثل العجيب كلما دق معناه ولطف حتى يحتاج إلى إخراجه بغوص الفكر عليه ، وإحالة الذهن فيه ، كانت النفس بما يظهر لها منه أكثر التذاذا أو أشد استماعا مما تفهمه في أول وهلة ، ولا تحتاج فيه إلى نظرة وفطنة ، وليس ذلك إلا لشرفها وبعد غايتها .[٤]

والحق فإن " هذا المثل الأدبي الرائع قد جلا المعانى الخاصة بالانتفاع بالهدى والعلم جلاء مؤثرا ، فأضاف إلى الحقيقة الفكرية بمدلولاتها الثلاثة صورة جعلتها تختال أمام العيون فى ثوب بهيج ، ولاشك

---

(١) سورة الفرقان من الآية :٤٤.

(٢) انظر الوابل الصيب : ٧٢.

(٣) أسرار البلاغة :١٣٩.

(٤) ينظر : أدب النديم ، محمود بن حسين ( كشاجم ) : ٢٠– المطبعة الأميرية – بولاق – ١٢٩٨هـ .

أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبيه فيزداد تأثرا وانفعالا بما سمع ، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققا محللا إذ مَسَّ أوتار قلبه مَسًّا حيًّا ، وإذا بلغ الأديب بتصويره مبلغ التأثير القوي فقد أدى رسالته البيانية على أكمل ما يراد "[١]

**الحديث تصوير دقيق رائع لأمور متناقضة متفاوتة :**

فى الحديث تصوير بياني فائق لثلاثة مشاهد متباينة متناقضة ، مشهد المنتفع النافع لغيره ، مشهد النافع لغيره فحسب ، مشهد غير المنتفع وغير النافع لغيره .

وإذا كان الحديث الشريف قد انطوى على مشبه واحد ألا وهو تشبيه الهدى والعلم بالغيث ، وأن هناك أكثر من مشبه به ، فتجدر الإشارة إلى أن وجه الشبه بين الطرفين هو التفاوت فى الانتفاع ، وذلك يعنى تعدد صورة التمثيل فى الحديث ، حيث شبه طرفا واحدا بثلاثة أطراف ، فهو تشبيه متعدد ملفوف[٢]، فقد جعل للمنتفع النافع لغيره مشهدا ، وللنافع لغيره فحسب مشهدا ، ولغير المنتفع وغير النافع لغيره مشهدا ، وذلك فى جو من الترغيب حينا والترهيب حينا آخر .

**التعبير عن الخبر بالتمثيل :**

أشار البغوي إلى أن حقيقة المعنى فى هذا الحديث هى الإخبار عن أهمية العلم والتفقه فى الدين وقبول هدى الله – عز وجل – ؛ لذا شبه كل نوع بما ذكر فى حقه [٣] .

---

(١) البيان النبوي : ٢٣٣.

(٢) التشبيه المتعدد الملفوف هو : ما أتى فيه بالمشبهين ثم بالمشبه بهما . بغية الإيضاح :٤٢٨.

(٣) ينظر شرح السنة – باب التفقه فى الدين – حديث رقم : ١٣٥– تحقيق / شعيب الأرناؤوط – و / محمد زهير الشاوش : ٢٨٧/١– المكتب الإسلامي – دمشق –

فأصل المعنى خبر قصد به الترغيب فى قبول الهدى والعلم والحث على الانتفاع به ونفع الغير ، والترهيب من مجرد حفظه فى الصدر فحسب ، فإنه وإن أفاد غيره فلن يفيد هو نفسه ، والترهيب كذلك من الإعراض عن قبول الهدى والعلم فلا ينفع نفسه ولا غيره ، بينما وجدنا البيان النبوي يعدل عن الأسلوب الخبري التقريري إلى أسلوب التمثيل لخطره العظيم فى إبراز المعانى وإحسانها ورفع قدرها .

وفى ذلك الشأن يقول الإمام عبد القاهر : " واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً "[(١)] .

ولأجل ذلك فإنه بـــ " التمثيل تحسن المعانى وتشتهر وتعرف كأنها النار فى اليفاع ، وتصبح ذوات مناقب وشرف تعلو به على نظرائها ، وتتميز به عن ضربائها ... وصور التمثيل تنفذ إلى أقاصى الأفئدة ، وتداخل سرائر القلوب ، ويكون لها رنين فى أقاصيها ، وتحرك ما قَرَّ فى قرار النفوس ، وتستثيره وتعطفه نحو المعنى "[(٢)] .

**التشويق إلى المعنى بالتمثيل** :

سبقت الإشارة إلى أن قوله – عليه السلام – " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ

---

بيروت – ط ثانية – ١٤٠٣ هـــ – ١٩٨٣م .

(١) أسرار البلاغة : ١١٥.

(٢) ينظر : مدخل إلى كتابي عبد القاهر : ٣٨٥ –٣٨٦.

بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا " إجمال ، وأن قوله بعد ذلك " فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ .....الخ " تفصيل ، وأن ذلك من تمكين المعانى وتقريرها .

وأهل العلم على أن المعانى حينما ينبه إليها ويهيئ المخاطب لتلقيها ، فإنها تستقر فى وجدانه ، وترسخ فى فؤاده ، وذلك إنما يكون فى الأمور المهمة التى يحرص المتكلم على إفهام المخاطب إياها ، وتثبيتها وترسيخها فى وجدانه .

والتنبيه للمعنى والتشويق له يسلك فى الكلام وسائل متنوعة منها :

الاستفهام ، والإيضاح بعد الإبهام ، وأدوات التنبيه ، والقسم ، والنفى ، والشرط ، والدعاء ، والتقديم ، والقصص ، والتمثيل ..الخ .

وقد كان للبيان النبوي النصيب الأوفر من هذه الوسائل المشوقة للمعنى ، والمهيئة قلوب المتلقين إلى الإصغاء والتلقى فى مقامات متعددة ، لعل أبرزها مقام التربية والتوجيه بضرب الأمثال التى تمكن المعانى فى النفوس وتقرها فى القلوب ، عندما تقف عليها بعد أن تكون قد نبهت بالمثل وهيئت للتلقى "[(١)]

والمثل هو الصفة العجيبة والحال الغريبة ، وعندما استهل النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ " استشرفت النفوس وتشوقت على ما سيمثل به ، وتترقب إخبار النبي – عليه السلام – بمثل ذلك ، ويأتي عندئذ قوله " كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ

(١) ينظر : التشويق فى الحديث النبوي : طرقه وأغراضه ، د/ بسيونى عبد الفتاح فيود : ٥،٧،١٢٣– مطبعة الحسين بالقاهرة – ط أولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م ، وينظر: البلاغة النبوية فى حديث " مثل البخيل والمنفق ..." : ٨١٣ ، ٨١٢ .

أَصَابَ أَرْضًا " ، ثم إيضاحه حـــال كل نوع من أنـــواع تلك الأرض وما يقابله من الناس ، حيث قال " فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ...الخ " فتتمكن تلك المعانى فى القلوب وتثبت فى النفوس من ترغيب فى العلم والهدى ، وترهيب بالإعراض عنه ، وذلك بصور محسوسة مشاهدة ..وهذا من شأنه أن يدعو للحرص على تقبل الهدى والانتفاع بالعلم وتعليم الغير ، وينفر ممن يحفظ فقط ، وممن يعرض عن الخير؛ وما ذلك إلا لأن النفس حريصة على اختيار ما ينفع واجتناب ما يضر[(١)] .

وجملة القول أنه بالتفصيل بعد الإجمال هنا تمكنت المعانى فى نفوس المتلقين فضل تمكن ، واكتملت لذة العلم به فى النفوس ، فبه تكمل لذة العلم بالمعنى ؛ لأن الإجمال يشعر به فيقع فى النفس تشوقا وطلبا له ، فإذا نيل بالتشوق والترقب كان ألذ بخلاف ما إذا نيل بلا شوق وطلب [(٢)] .

**وقفات مع نكات بلاغية أخرى فى الحديث :**

ففى اصطفاء النبي – عليه الســـلام – كلمة" الْغَيْثِ " مشـــبها رسالة الإسلام به دلالة عميقة الأثر ، فالغيث يضطر إليه الخلق اضطرارا ، فهم يكونون قبل نزوله فى أشد الحاجة إليه ، وكذلك كانت الحاجة إلى الإسلام شديدة ، حيث خيم الضلال والظلم على الدنيا بأسرها " ووجه الشبه بين العلم والغيث الحياة ، فالغيث يحيى البلد الميت ، والعلم يحيى القلب الميت ...قال تعالى " وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا.." [(٣)] وقد كانوا قبل الغيث امتحنوا بموت القلوب ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمة من عنده " [(٤)] .

---

(١) ينظر : التشويق فى الحديث النبوي :١٢٣،١٢٤.

(٢) مواهب الفتاح : ٣/٢١٠.

(٣) الشورى من الآية :٢٨.

(٤) انظر : عمدة القارى شرح صـــحيح البخـــاري للعـــيني : ٢/٨٠– ط الحلـــبي – ط أولى

ويقول ابن منظور : يطلق الغيث على المطر والكلأ ؛ لأنه يأتى بالخير والنعمة ؛ ولأنه يغوث الناس بعد انقطاع الأخضر ، والعرب تسمى النبات غيثا لأنه ينبت منه [(١)] .

وهذه المعانى قاطبة تشير إلى رسالة الإسلام ، حيث أتت مفعمة بكل صلاح وهدى وخير ، وقد كان العالم فى أمس الحاجة إليها .

وقوله – عليه السلام – " الْكَثِيرِ " صفة للغيث ، وهذه الصفة تعد قيدا للمشبه به ، فهو ليس مجرد غيث فحسب ، بل هو من الغزارة والانهمار ما استحق به أن يوصف بالكثرة من أفصح الفصحاء عليه السلام .

وقوله " أَصَابَ أَرْضًا " جملة وقعت حالا لذلك الغيث الكثير ، وهذا قيد آخر للمشبه به ، فهو ليس مجرد غيث كثير نزل فى مكان ما ، ولكنه نزل على أرض منوعة الأقسام والتربة ، على غرار ما فصله عليه السلام فيما بعد .

والتعبير بقوله " نَقِيَّةٌ " أبان عن خيرية هذه الفئة وفضلها فما الخير والفضل إلا عبارة عن نقاء السريرة وطهارة القلب .

وفى رواية أخرى " بقية " بدلا من "نقية " والروايتان متقاربتان ، بل لا نبالغ إذا قلنا أنهما متحدتان ، بل وتخرجان من مشكاة واحدة ، فـ " بقية " تلمح فيه فضل ومكانة هذا الصنف من الناس ، وإلى ذلك المعنى ذهب ابن منظور حيث قال : " والبقية : الفضل والخير ، تقول فى فلان بقية معناه : فيه فضل فيما يمدح به . [(٢)]

---

١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .

(١) لسان العرب : ( غوث ) .

(٢) لسان العرب : ( بقى ) .

" ومن أمثالهم فى " الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا " ، فمن هنالك أطلقت على الفضل والخير فى صفات الناس " [١]

ومن هنا وافق تعبير النبي – عليه السلام – بهذه الكلمة فى هذا الموضع موقعا فتمكن ، كسائر كلامه صلى الله عليه وسلم .

وتأمل وصف تلك الفئة " النقية " بالجملة الفعلية " قَبِلَتِ الْمَاءَ " وهذا الوصف يؤكد خيرية هذه الفئة من الناس ، وأن لديها عقل ووعي وإدراك لما جاءها من عند الله – جل فى علاه – على يد رسوله – عليه السلام – من الهدى والإيمان ، فما كان منها إلا القبول والرضا بهذا الدين الذى ضمن لها السعادة دنيا وأخرى .

ومما يؤكد خيرية هذه الطائفة من الناس ، ورجحان عقلها أنه لم يكن منها سوى قبول هذا الهدى والعلم ، وقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – أشار فى بدء حديثه بقوله " الْغَيْثِ " ، والغيث مما تشتد الحاجة إليه ، ومن ثم فلا يمكن لذي لب وعقل رشيد أن يرفض شيئا هو فى أمس الحاجة إليه.

كما أن هناك رواية لمسلم " طائفة " بدلا من " بقية " و" نقية " وليس فى ذلك أدنى تعارض ، ومع تلك الرواية جاء وصف الـ " طائفة " بقوله " طيبة "، وذلك يقوى ويؤكد روايتي " بقية " ، و" نقية " وبذا تتآزر الروايات وتتشابك لتعطينا معنى واحدا هو ما

---

(١) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور عند تفسيره قوله تعالى " فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ ...الآية " سورة هود من الآية :١١٦،والتفسير: ١٢/١٨٤– الدار التونسية للنشر – ١٩٨٤م .

أمـــه رسول الله _ صلى الله عليه وسلم – من معنى الخيرية والصلاح لتلك الفئة .

ولا نغفل دور " الفاء " فى قوله عليه السلام " فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ " حيث كانت تلك الفاء " المعبر الذى يترلق عليه القول من باب من أبواب المعنى إلى باب آخر ، علاوة على ربط أجزاء المعانى بعضها ببعض " [(١)] .

أما الفاء فى قوله " فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ " فهى فاء التعقيب ، حيث كان الإنبات عقب قبول الماء ، ولا تعدم معنى السرعة فى هذه الفاء ، فقبول الهدى والعلم والإيمان يحول صاحبه بأقصى سرعة من الثرى إلى الثريا ، وفى ذلك مزيد إبراز لفضل هدى الله – تعالى – لعباده .

وفى قوله " الْكَلأَ وَالْعُشْبَ " صورة من صور الإطناب ، ففى التعبير ذكر للخاص بعد العام ؛ حيث ورد فى اللسان أن الكلأ : العشب رطبه ويابسه ، أما العشب : فهو الرطب فحسب [(٢)]، فيكون ذكر الخاص بعد العام هنا تنويها بشأن العشب ومكانته لدى العرب آنذاك .

ووصف الكلأ والعشب بالكثرة فى قوله " فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ " حث وحض على قبول الهدى والعلم .

وقيل أن " قبول الماء إشارة إلى العلم ، وإنبات الكلأ إشارة إلى

---

(١) قراءة فى الأدب القديم – د/ محمد أبو موسي : ٤٦– دار الفكر العربي – ط١– ١٩٧٨م.

(٢) اللسان :مادة ( عشب ) .

التعليم " [١] .

وقد وصل النبي – صلى الله عليه وسلم – بين هاتين الجملتين بـــ " الواو " فى قوله " وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ ..." لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، حيث إن الجملتين كانتا خبريتين لفظا ومعنى ، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف ، ولم يمنع من العطف مانع ، لذا وصل بينهما .

وعبر – عليه السلام – عن النوع الثانى من الأرض – وهم من لم يعمل بالعلم ، بل حفظـــه فنفع غيره ولم ينتفع هو به ، عبر عنه بقـــوله " أَجَادِبُ " ، والأجادب – كما سبق ذكره – صلاب الأرض التى تمسك الماء فلا تشربه [٢] ، فقد ورد فى صحيح مسلم أن " ابن بطال وصاحب المطالع وآخرين قالوا : هو جمع " جُدْب " على غير قياس " [٣] ولئن صح ذلك ، فيكون عدم القياس فى جمع هذه الكلمة متوائما تمام المواءمة مع هذه الفئة التى تنهل من العلم من كل حدب وصوب ، وتتعب وتجهد نفسها فى تحصيله ثم لا تعمل بما علمت ، بل يفيد منها غيرها فحسب ، إذا كان ذلك كذلك فقمين أن تكون هذه النفس غير مكتملة الأركان – غير قياسية – فلا يناسبها فى التعبير عنها إلا كلمة مجموعة جمعا غير قياسي .

ولنا هنا وقفة وهو أن الكلمة غير القياسية لغة قد تكون قمة فى الفصاحة والبلاغة وليس هذا بدعا من القول فله نظائره فى الكلام العالى ،

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : ١٤/٢– دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة – د. ت .

(٢) لسان العرب : ( جدب ) .

(٣) انظر صحيح مسلم : ٤/ ١٧٨٧.

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن ورود الكلمة على غير القياس قد يخرجها من دائرة الفصاحة يحتاج إلى دقة ووعي شديدين ، فقد تفعم تلك الكلمة بالفصاحة كما ورد فى كلام أفصح الناس – عليه السلام – فى اصطفائه كلمة "أجـــادب" فهى مجموعة على غير قياس ، وعلى غرار كلمة " اثاقلتم " [(١)] فهى على ثقلها فى النطق ، فإن ثقلها هذا من أهم مظاهر فصاحتها ، من حيث إن هذا الثقل يصـــور معناهـــا بـــحق [(٢)].

والفاء فى قوله " فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ " للتعقيب ، وبالنظر فى هاتين الجملتين المتشابهتين ، فهناك مع الفئة التى قبلت الهدى والعلم فنفعت وانتفعت أتت الجملة " فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ " على طريق المجاز العقلي ، وعلاقته السببية ، وهذا قد يومئ – ولو من طرف خفي – للفضل الكبير لهذه الفئة ، وأن لها دورا كبيرا فى ذلك تؤجر عليه الأجر العميم ، بينما مع الفئة الثانية التى لم تنتفع بالهدى ونفعت غيرها أتت الجملة " فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ " بإسناد الفعل " النفع " إلى الفاعل الحقيقي سبحانه وتعالى ، ولعل فى ذلك إيماءة بأن لتلك الفئة فضل بنفعهم الناس ، ولكنه فضل دون فضل الفئة الأولى ، لأجل ذلك لم ينسب إليهم الفعل ولو على سبيل المجاز العقلي ، فكان يمكن أن يكون

---

(١) من قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَـــى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ " سورة التوبة :٣٨.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب – دراســة تحليلية لمسائل علم المعانى ،د / محمد أبـــو موســـى : ٦٣– مكتبة وهبة – ط ٤ – ١٤١٦ هـــ – ١٩٩٦م.

التعبير – فى غير الحديث – " فنفعت الناس " كما قيل هناك " فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ..."

أما قوله " فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا " فهو من اللف والنشر ؛ لأن الشرب والسقي للقسم الثانى ، والرعي للقسم الأول ، ولا مانع من أن يكون القسم الثانى جامعا للثلاث ... وفيه إشارة إلى أن أهل القسم الثاني مرزقون من جميع النعم ، منفقون على غيرهم فهم كاملون مكملون على ما يدل عليه قوله " فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ " بخلاف أهل القسم الأول "[(١)] .

وقوله " وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً " أول مايلفت النظر ويسترعى الانتباه أنه – عليه السلام – لم يذكر الفعل " كان " كما فعل مع النوعين الأول والثاني ، حيث قال" فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ ..... وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ .." أما هنا فقد حذف " كان " ، ولعل وراء هذا الحذف حزن عميق وضيق منه – صلى الله عليه وسلم – على حال ومآل تلك الفئة ، التى حرمت من الخير فلا نفع لها ولا انتفاع لغيرها ، وحزنه – صلى الله عليه وسلم – على أمثال هؤلاء نابع من رحمته بالناس جميعا.

وفى التعبير أسلوب قصر بـــ " إنما" حيث وصف أرض هذه الفئة الأخيرة بقوله " إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ " قصر موصـــوف على صـــفة ، والمقصور عليه مع " إنـــما " هو المؤخـــر دائما ، فهو – عليه السلام – قد قصر " هى " الموصوف على " قيعان " وهى الصفة ، قصرا حقيقيا تحقيقيا قصد من ورائه بيان إفلاس تلك الفئة ، وانعدام كل خير منها .

وقد بنى – عليه السلام – جملة القصـــر على تصوير كنائي أبرز

(١) ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : ٩/٢.

من خـــلاله خلو هؤلاء من كل خير ، فالقيعان هى تلك الأرض الصماء الملساء المستوية التى يمر عليها الماء فلا تنتفع به [١] ومن ثم لا تجد فيها أثرا للحياة والبقاء فلا نبت ولا كلأ ولا عشب ، ومن ثم فلا سقي ولا شرب ولا رعي ، وهذا أنـــموذج قوي وجلي لتلك الفئة من الناس التى لم تستجب ولم تقبل هدى الله عز وجل .

وغنى عن البيان القول " أن المعانى التى تدخل عليها " إنما " معان مأنوسة قريبة من النفوس " [٢] .

وكان ذلك من خلال ما هيأ به النبي – صلى الله عليه وسلم – الأسماع والقلوب إلى هذا الصنف الأخير بعد ما أورد الصنفين الأول والثانى .

كما تجد الإيضاح بعد الإبهام جليا فى قوله – عليه السلام – " لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً " فقد أبانت هاتين الجملتين عن حقيقة تلك الأرض وكشفت عن صفاتها .

ولما كانت الشريعة السمحة تدور بين الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى،وجدناه – عليه السلام – يتخذ من المقابلة وسيلة للترغيب فى سماع الهدى والعلم والإفادة منه، والترهيب من الإعراض والصد عنه، وذلك من خلال مقابلته بين الفئة الأولى فى قوله " نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَـــلأَ وَالْعُشْبَ" والفئة الأخيرة بقوله "قِيعَانٌ لاَ تُـــمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَـــلأً " ، وقد رمى – عليه السلام – من وراء مقابلته تلك

---

(١) ينظر : فتح البارى : ١٧٦/١.

(٢) دلالات التراكيب – دراسة بلاغية د/ محمد أبو موسى :١٥٥– مكتبة وهبـــة – ط ٤ – ١٤٢٩هـــ – ٢٠٠٨ م .

إلى إبراز البون الشاسع بين هاتين الفئتين ليكون ترغيب هناك ، وترهيب هنا .

ومن نافلة القول أن أسلوب المقابلة من الأساليب التى تؤكد المعانى وتقررها عند المخاطب ؛ لأن الضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء .

وقوله " فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ " إشارة قوية إلى تلك التى استجابت لنور الله وهداه .

والفاء هنا أتت لربط الكلم بعضه ببعض ، ولإبراز ترابط الجمل وتماسكها وأنها بناء واحد.

والإشارة فى " ذلك " للبعيد فيه رفع لشأن المشار إليه وهم الفئة الأولى .

والتعبير بالموصول " من " يوحى بعلو المنزلة وشرفها وهو ما يتناغى مع اسم الإشارة السابق .

والإضافة فى قوله " دِينِ اللهِ " أضفت من المهابة وعلو المكانة لهذا الدين ما أضفت ، وأي شيء يضاف إلى اسم الجلالة ولا ينال المكانة والرفعة والشدة ؟!

وبين قوله " فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ " وبين " وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي ..." وصل للتوسط بين الكمالين لاتحاد الجملتين فى الخبرية لفظا ومعنى .

كما أبان الموصول فى قوله " بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ " عن عظم ومكانة الرسالة ، ويتضح من خلال هذه الجملة السابقة أنه يخيم عليها ويظللها جو المهابة والجلال من خلال جل صورها من التعبير باسمي الموصول " من " ، و " ما " واسم الإشارة " ذلك " والوصل ، ولا عجب فى ذلك ،

فالمتكلم هو أفصح العرب عليه السلام .

هذا ويمكن الوقوف على شيء آخر فى ذكر المسند إليه المتمثل فى لفظ الجلالة " الله " فى قوله " بعثني الله به " مع وروده فى العبارة السابقة – فى الجملة ذاتها – فى قوله "دِينِ اللهِ " ألا وهو الاستلذاذ بذكر الله والإكثار منه ، ولاغـــرو فى ذلك ولا عجب ، فما يصدر مثل هذا إلا من رســـول لم يتخذ سوى الله عز وجل – خليلا له ، ومن وراء ذلك يعلمنا – عليه السلام – درسا عمليا فى الإكثار من ذكر الله .

أما قوله " فَعَلِمَ وَعَلَّمَ " نجد "الفاء " فيه أفادت التعقيب ، فبعد قبول هؤلاء الهدى وسماعهم العلم ، أعقب ذلك تأثرهم بالعلم وحفظهم إياه فى صدورهم .

أما قوله "وَعَلَّمَ" أتى معطوفا بـــ " الواو " للوصل بين الجملتين ، فهما جملتان خبريتان لفظا ومعنى ، وكان الوصل هنا للتوسط بين الكمالين ، وليس بينهما ما يدعو إلى الفصل فهما مرتبطتان أيما ارتباط .

ومما استرعى الانتباه هنا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يعطف بينهما بـــ " ثم " التى تفيد الترتيب والتراخى ، ولعل السر فى ذلك يكمن فى أن العالم يمكن أن يبذل شيئا من علمه لغيره بدون تراخ ، فلم يكن هنا لـــ " ثم " من مكان ، فجاء العطف هنا بـــ " الواو " فى موضعه اللائق به .

ولا يخفى ذلك الجرس الموسيقي بين هاتين الكلمتين ، فبينهما جناس محرف [١] أحدث جرسا موسيقيا كان بمثابة ختم الحديث ونهايته

(١) وسمي بذلك لانحراف هيئة أحد اللفظين عن الآخر ، ويسمى مغايرا ومختلفا . ينظـــر : فـــن الجناس أ / على الجندى : ٨٧– دار الفكر العربي – د.ت .

عن الفئة الأولى .

وغير خاف أن هذا القول ، أعنى " فَعَلِمَ وَعَلَّمَ " قد بنى على إيجاز القصر ، فهما كلمتان عددا ، ولكن معنييهما يحتاجان إلى صفحات وصفحات ، وربما إلى كتب ومجلدات ، فهو يشمل جل العلوم الشرعية ، وتعلمها ، وطرق تعليمها ....الخ .

ويلحظ فى الحديث الشريف تعدد الفاءات العاطفة وذلك فى قوله " فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ..... فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ..... فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا..... فَشَرِبُوا ..... فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ ..... فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ...." فوراء هذا التكرار ربط معانى الكلام وتأكيده ، وتقرير كل من الترغيب والترهيب فى ذلك السياق المفعم بالحرص على النصح ، وتقبل الهدى والحق .

أما قوله " وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " يشير به المصطفى – عليه السلام – إلى الفئة التى أعرضت عن هدى الله .

وغني عن البيان أنه " ذكر فى تقسيم الأرض ثلاثة ، وفى تقسيم الناس قسمين ، مَنْ فَقُهَ ، ومن أبى ولم يرفع ؛ وذلك لأن القسم الأول والثانى من الأرض كقسم واحد من حيث أنه منتفع به "[١]

وتأمل التصوير بالكناية فى قوله " لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا " وهو كناية عن الإعراض وعدم الاكتراث ،والإشارة فى " بذلك " تفخيم وتعظيم لأمر الرسالة والهدى ، وهذا التفخيم وتلك الكناية يبرزان مدى حمق هؤلاء وجهلهم المطبق ، فبماذا يوصف من يكون بين يديه شيئ

(١) مرقاة المفاتيح :٢/١٤،١٥.

عظيم ولا يأبه به ولا يكترث له ؟!!

وقوله "وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " جاء معطوفا وموصولا بالقول السابق للتوسط بين الكمالين ، وهو مبني على القول السابق ، فلما كان هذا الإنسان ذا حمق وجهل مطبق فمن الطبيعي أنه لم يقبل هدى الله .

وفى إضافة الهدى إلى الله تعظيم وتنويه بشأن ذلك الهدى ، وكذلك التعبير بالموصول " الذى " أوحى بفخامة ومكانة تلك الرسالة ، وبناء الفعل للمجهول فى قوله " أُرْسِلْتُ بِهِ " فيه من الدلالة على تعظيم شأن الرسالة مالا يخفى .

وهذه الأدوات والصور والتراكيب التى أبانت عن عظم ما بعث به النبي – صلى الله عليه وسلم – من تعبير بالإضافة ، وبالموصول ، وببناء الفعل للمجهول مما يصور ذلك المعرض الصاد فى موقف لا يحسد عليه ، فكان قمينا أن يثوب إلى رشده ويعمل عقله فيقبل ما أنزله الله من هدى .

وبالنظر فى أول عبارة للنبي – عليه السلام – فى الحديث ، وآخر عبارة نجد مفارقة تعبيرية تكمن فى قوله فى أوله " مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ " وفى آخره " الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " ولم يفرق بينهما الراغب الأصفهاني حيث قال فى قوله تعالى " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً.."[١] ، نحو ما ذكره فى " ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا " [٢] [٣] ، وكذلك لم يفرق بينهما أبو هلال العسكري ، بل ذكر كلاما لا يتعلق فيما نحن فيه لا من قريب ولا من

(١) سورة النحل من الآية :٣٦.

(٢) سورة المؤمنون من الآية :٤٤.

(٣) المفردات :١٤٥/١.

بعيد [١]

ولعل ما أورده (عليه السلام) هو تأنق وتنوع فى التعبير ، فهو طبيب للقلوب ، فلا يريد أن تقع فى ملل – ومثله لا يمل له كلام – أو كلل فنوع لها فى الجمل والعبارات .

وهذا الختم للحديث بتلك العبارة هى بمثابة حسن الختام للحديث الشريـــف ، فهى آخر ما يعيه السمع ويرتسم فى النفس[٢]

هذا وللعلوي كلام عن حسن الختام يحسن ذكره هنا إذ قال " وينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتيم ، فإنَّها آخر ما يبقى على الأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها ، فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها ، وفي قوتـــها وجزالتها ، وينبغي تضمينها معنى تاماً يؤذن السامع بأنّه الغاية والمقصد والنهاية ... فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه ، والغاية في كلامه ... " [٣] .

وبالنظر فى الحديث نجد تكرار حروف بعينها كثيرا ، فمثلا هناك حرف "اللام " قد تكرر ستا وعشرين مرة ، وكان لهذا التكرار دوره فى إحداث الجرس الموسيقي الواقع بين كلمات الحديث ، وهذا نابع من أن

---

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري – تحقيق / محمد إبراهيم سليم :١٦٨– دار العلم والثقافة – د. ت .

(٢) ينظر : كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي :١٨٣/٣– مطبعة المقتطف – مصر– ١٣٣٣هـــ – ١٩٩٤م.

(٣) ينظر : كتاب الطراز : ٣ ، ١٨٣.

تكرار حرف بعينه في كلمات ما يضفي على الكلام قدراً من العذوبة والسلاسة [١] ، فكيف إذا كان الكلام نابعا من المعين العذب الصافى ؟! وبذا صار فى الحديث عذوبة فوق عذوبة وسلاسة فوق سلاسة .

**أثر القرآن الكريم فى بيان النبوة:**

فى مواطن كثيرة حث القرآن الكريم على تقبل هدى الله وحض كثيرا على العلم وتحصيله ، وحسبه أن أول ما نزل منه نزل " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ " [٢] ، كما أبدى وأعاد فى الحديث عن القلوب وأنواعها .

وهذه الصورة التشبيهية التمثيلية التى صاغها النبي – عليه السلام – إذا بحثت عن نظير لها فى كلام البشر فلن تجد ، ولكنك تجد مثلا لها وأقوى منها فى قوله تعالى " أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ "[٣] .

فإن الانتفاع بالماء عند قوم ، وضياعه هباء عند آخرين فى الصورتين القرآنية والنبوية معا مما قوى به المثلان قوة مؤثرة ، والقرآن

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر ، محمد أبو موسى ، ٢٠٤ ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ .

(٢) سورة العلق :١.

(٣) سورة الرعد :١٧.

أستاذ محمد – صلى الله عليه وسلم – فهو يستلهمه ويستهديه [١] .

وقد أصاب ( عليه السلام ) – كعادته – فى التغلغل إلى أعماق النفوس ليحرك ساكنها حتى تعى ما يقول فتستجيب، وذلك من خلال حسن اختياره واصطفائه للصورة التى يعبر عنها فى موضوع ما .

وأدبيا ونقديا يتوقف نجاح الأديب على حسن اختياره للصورة التى تجلو معانيه وتغمرها بالوضوح والإشراق ، فالصورة المنسقة البارعة هى التى تزيد المعانى جمالا به يقترب البعيد ، ويجلى الغامض ، فينتقل الشعور به إلى النفس حيا قويا ممتازا ، وعلى قدر هذا الانتقال الحي النافذ من الكاتب إلى القارئ يكمن إبداعه وتوفيقه قوة وضعفا وتحليقا وانحدارا [٢] .

ويمكن أن يكون أثر النوع الأول والثالث فى الحديث النبوي من قوله تعالى " وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدا.." [٣] .

وكذلك قوله تعالى " ... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ "[٤] وقوله "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"[٥] ، وقوله " وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا.."[٦]

---

(١) ينظر : البيان النبوي : ٢٣٣ .

(٢) ينظر : البيان النبوي : ٢٣٢.

(٣) سورة الأعراف من الآية :٥٨.

(٤) سورة الحج من الآية :٥.

(٥) سورة الأنبياء من الآية :٣٠.

(٦) سورة الشورى من الآية : ٢٨.

وتلك الأمثال القرآنية السابقة وغيرها تشير إلى أهمية وقيمة العلم حينما شبه بالماء ، فإذا كان الماء حياة للناس فكذلك العلم حياة للقلوب ، كما بينت الأمثال القرآنية تنوع القلوب وتعددها فى قبول الهدى وعدم قبوله .

وقد استقرت تلك المعانى العالية والصور المعبرة الكاشفة فى قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – ووعاها عقله ، وكان لها بالغ الأثر فى بيانه المبين ، وأسلوبه البليغ الذى فاق كل أسلوب بشري ، لأنه يستضيئ بنور الوحي ، ويجرى على لسان أفصح العرب على الإطلاق ، فقد كان – عليه السلام – يعلم لغات العرب على اختلاف مواطنهم واشتراك اللغات وانفرادها بينهم ، يعلم كل ذلك على حقه كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها وتبادره بحقائقها فيخاطب كل قوم بلحنهم ، وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا ، وأشدهم لفظا ، وأبينهم عبارة ، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب.[١]

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣١٨-٣١٥.

## الخاتمة

بعد إنعام النظر وإجالته للبلاغة النبوية فى هذا الحديث النبوي الشريف ، يمكن استخلاص بعض النتائج الآتية :

- هذا الحديث النبوي الشريف قد اتكأ على المثل ، وصيغ بأسلوبه القائم على التمثيل والتصوير .
- كما كان للتقسيم دور بارز فى الحديث حيث استوعبه كله .
- الحديث برمته يعتمد على أسلوب تقريري لكن هذا الأسلوب التقريري كان فى حاجة إلى صورة بيانية جامعة تزيده إيضاحا وتأثيرا كى يتأصل فى النفوس تأصلا تمليه الروعة البيانية ، فلا بد من هيئة جامعة تندرج فيها هذه الأنماط المختلفة فكان ذلك البيان النبوي الرائع فى بناء هذه الصورة التى أجلت المعانى المحتجبة فى الأستار ، بل زادتها جلاء وسطوعا .
- تعددت صورة التمثيل فى الحديث حيث شبه – عليه السلام – طرفا واحدا بثلاثة أطراف ، فجاء الحديث تصويرا دقيقا رائعا لأمور متناقضة ومتفاوتة ، وكان ذلك كله فى جو من الترغيب حينا والترهيب حينا آخر.
- اتكأ الحديث على التشويق إلى المعنى عن طريق التمثيل من خلال التفصيل بعد الإجمال وغيره من أدوات التنبيه التى وردت فى جنبات الحديث .
- تعددت الروايات فى الحديث ، بيد أنها كانت متقاربة ومتحدة وخدم بعضها بعضا فى إبراز مقصود النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا عجب فى ذلك فقد خرجت جميعا من مشكاة واحدة .

– القول بأن ورود الكلمة على غير القياس قد يخرجها من دائرة الفصاحة يحتاج إلى دقة ووعي شديدين ، فقد تفعم تلك الكلمة بالفصاحة كما ورد فى كلام أفصح الناس – عليه السلام – فى اصطفائه كلمة "أجـادب" فهى مجموعة على غير قياس ، حيث إنها تجمع على " جدب " ، وليس هذا وقفا على كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، بل هناك نظيره فى كلام رب العالمين ، على غرار كلمة " اثاقلتم " [(١)] فهى على ثقلها فى النطق ، فإن ثقلها هذا من أهم مظاهر فصاحتها ، من حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق [(٢)] وكذلك كانت كلمة " أجادب " فى الحديث .

– اعتمد الحديث فى الترغيب والترهيب على أسلوب المقابلة ، علاوة على إفادتها التوكيد وتقرير المعانى لدى المخاطب .

– كان للقرآن الكريم أثره الجلي فى بيانه صلى الله عليه وسلم .

– أفعم الحديث بعديد من الصور البلاغية من معان وبيان وبديع حسب ماورد فى ثنايا البحث .

وبعد هذه الرحلة الشائقة مع حديثه – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) من قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ " سورة التوبة :٣٨.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب – دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى ،د / محمد أبو موسى : ٦٣– مكتبة وهبة – ط ٤ – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

ألتمس العذر إن بدر منى إساءة فى فهم كلامه – عليه السلام – فحسبى أنى اجتهدت بقدر ما أتيح لى من وسائل التحليل . " ... رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا..."

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والله ولى التوفيق .

**أولاً: المصادر والمراجع :**


– القرآن الكريم .

١ – أثر التشبيه فى تصوير المعنى قراءة فى صحيح مسلم – د / عبد البارى طه سعيد – ط أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٢ – أدب النديم ، محمود بن حسين ( كشاجم ) – المطبعة الأميرية – بولاق – ١٢٩٨هـ .

٣ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي – المكتبة التوفيقية – القاهرة .

٤ – الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع للعسقلاني – تحقيق / أبى عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى –١٩٩٧م.

٥ – أمثال الحديث للرامهرمزي – تحقيق / أحمد عبد الفتاح تمام – مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – ط أولى – ١٤٠٩هـ .

٦ – الأمثال فى القرآن الكريم لابن القيم – مكتبة الصحابة – ط أولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٧ – الإيضاح فى علوم البلاغة المعانى والبيان والبديع ، الخطيب القزويني – دار إحياء العلوم – بيروت – ط رابعة – ١٩٩٨م .

٨–الإيضاح مع البغية – مكتبة الآداب بالقاهرة – ط أولى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م .

٩ – البرهان فى إعجاز القرآن للزملكاني – تحقيق د/ خديجة الحديثي ، ود/ أحمد مطلوب– مطبعة العانى – بغداد – ط أولى ١٣٩٩هـ١٩٧٤م .

١٠ – البيان النبوي ، د/ محمد رجب البيومي – دار الوفاء – ط أولى – ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

١١ – البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق وشرح / عبد السلام هارون – مطبعة المدنى – ط السابعة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م

١٢ – تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي – تحقيق / مجموعة من المحققين – دار الهداية – د. ت .

١٣ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور– الدار التونسية للنشر – ١٩٨٤م.

١٤ – التشويق فى الحديث النبوي : طرقه وأغراضه ، د / بسيونى عبد الفتاح فيود – مطبعة الحسين بالقاهرة – ط أولى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

١٥ – تفسير الزمخشري – طبعة دار الفكر – د . ت .

١٦ – التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى ، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض – ط ثالثة – ١٤٠٨ هـ _ ١٩٨٨م .

١٧ – الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ، محمد بن فتوح الحميدي ، تحقيق د / على حسين البواب – دار ابن حزم – لبنان – ط ثانية ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

١٨ – الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري – دار الشعب – القاهرة – ط الأولى ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

١٩ – خصائص التراكيب – دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى – د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط ٤ – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

٢٠ – دراسة في البلاغة والشعر ، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – ط ١ ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ .

٢١ – دلالات التراكيب – دراسة بلاغية د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط ٤ – ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨ م .

٢٢ – دور البلاغة فى تأدية الأغراض الدينية د/ محمد إبراهيم عبد العزيز– مطبعة السعادة – ط أولى – ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٢٣ – سنن أبى داود لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستاني – دار الكتاب العربي – بيروت – د . ت .

٢٤ – سنن النسائي الكبرى ( أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى ) – تحقيق د / عبد الغفار سليمان البنداري ، وسيد كسروي حسن – دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٢٥ – سير أعلام النبلاء للذهبي – تحقيق / مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ / شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – ط ثالثة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٢٦ – شرح أحاديث من صحيح البخاري ، د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط أولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

٢٧ – شرح السنة – تحقيق / شعيب الأرناؤوط – و / محمد زهير الشاوش– المكتب الإسلامي – دمشق – بيروت – ط ثانية – ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م .

٢٨ – الشفا بتعريف المصطفى للقاضى عياض– ط مصطفى الحلبي .

٢٩ – صحيح البخارى ( الجامع الصحيح المختصر ) للإمام البخاري – تحقيق / مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – ط ثالثة – ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٧م

٣٠ – صحيح الترغيب والترهيب للألباني – باب الترغيب فى العلم وطلبه وتعلمه – مكتبة المعارف – الرياض – ط خامسة .

٣١ – صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ( محمد بن حبان أبو حاتم البستي ) – تحقيق / شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط – ثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

٣٢ – صحيح مسلم ( أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري– تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى – دار إحياء التراث العربي – بيروت – د . ت .

٣٣ – عمدة القارى شرح صحيح البخاري للعيني – ط الحلبي – ط اولى ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م .

٣٤ – غريب الحديث للخطابي – تحقيق / عبد الكريم إبراهيم الغرباوي – ط مركز البحث العلمي وإحياء التراث – كلية الشريعة – جامعة أم القرى – السعودية .

٣٥– الفائق في غريب الحديث للزمخشري – تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعرفة ، لبنان ، ط ٢ ، د. ت .

٣٦ – الفـــروق اللغـــوية لأبى هلال العسكري – تحقيق / محمد إبراهيم سليم – دار العلم والثقافة – د. ت .

٣٧ – فن الجناس أ / على الجندى – دار الفكر العربي – د.ت .

٣٨ – قراءة فى الأدب القديم ، د/ محمد أبو موسى – ط أولى ١٩٧٨م – دار الفكر العربي.

٣٩ – كتاب أسرار البلاغة ، تحقيق / محمود أحمد شاكر – مطبعة المدني – د. ت .

٤٠ – كتاب دلائل الإعجاز : تحقيق / محمود أحمد شاكر – مطبعة المدنى – ط ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

٤١ – كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي– مطبعة المقتطف – مصر– ١٣٣٣هـ – ١٩٩٤م.

٤٢ – لسان العرب لابن منظور– دار صادر – بيروت – ط أولى – د.ت .

٤٣ – مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة.

٤٤ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، علي بن سلطان محمد القارى – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة .

٤٥ – مسند الإمام أحمد بن حنبل – تحقيق/ شعيب الأرناؤوط وآخرين – مؤسسة قرطبة – القاهرة – د.ت .

٤٦– معالم السنن للإمام الخطابي – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى– دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ،

٤٧– معجم ألفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية بالقاهرة – مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٤٨ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبى بكر الهيثمي – دار الفكر – بيروت – ١٤١٢هـ .

٤٩ – المعجم الكبير للطبراني – تحقيق / حمدى عبد المجيد السلفي – مكتبة العلوم والحكم – الموصل – ط ثانية – ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .

٥٠ – المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني – ط دار المعرفة – بيروت – ١٩٧٠م.

٥١ – مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ، ضمن شروح التلخيص – طبعة دار السرور .

٥٢ – من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي– نهضة مصر ٢٠٠٥م .

٥٣ – النبوة منهجا وحركة ، د / محمود توفيق سعد – مطبعة الأمانة – ط أولى – ١٤٣١هـ – ١٩٩٢م.

٥٤ – نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام الحافظ الفقيه أبى زكريا محيى الدين يحيى النووي تأليف د / مصطفى سعد الخن ، ود/ مصطفى البغا وآخرين – مؤسسة الرسالة – ط ١٤ – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

٥٥– الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم – تحقيق / محمد عبد الرحمن عوض– دار الكتاب العربي – بيروت – ط أولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٥٦– الوافى بالوفيات للصفدي.

**ثانياً : الدوريات :**

١ – البلاغة النبوية فى حديث :" مثل البخيل والمنفق ..." د/ على عبد الموجود نور الدين – حولية كلية اللغة العربية بجرجا : العدد الثالث عشر – ١٤٣٠هـ –٢٠٠٩م .